سورة القمر
قراءة في الدلالات والعبر

أ. د. بشرى البستاني*

(١)

سورة القمر مكية من خمس وخمسين آية، تسلسلها الرابع والخمسون في الجزء السابع والعشرين، ويطلق عليها "اقتربت الساعة" كما يطلق عليها " اقتربت.. " [١] فقد يكون للسورة اسم واحد وهو كثير، وقد يكون لها اسمان أو أكثر كسورة البقرة يقال لها "فسطاط القرآن" لعظمها وبهائها[٢] وسميت الزهراء إشارة إلى حديث الرسول الكريم ((إقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران..)) [٣] وسنام القران عن حديث الرسول عليه الصلاة والسلام "إن لكل شيء سناماً وان سنام القرآن سورة البقرة" [٤] وسورة النحل تسمى "سورة النعم" لما عدد فيها الله تعالى من النعم على عباده وسورة حم عسق تسمى "الشورى" والجاثية تسمى "الشريعة" وسورة محمد (ص) تسمى "القتال.." حتى قد يتجاوز اسم السورة الواحدة العشرين اسماً كسورة الفاتحة [٥] والملاحظ أن تعدد أسماء السورة الواحدة ما ينفك يدور داخل حقل دلالي لا يبتعد عما ينطلق من دلالات المتن، فالعرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أو حكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرأي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام أو

---

* أستاذ/ جامعة الموصل/ كلية الآداب . قسم اللغة العربية.

١ ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤ / ٢٦٠.

٢ ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ١ / ٢٦٩. وسنشير إليه بالبرهان لاحقاً

٣ صحيح مسلم، ١ / ٥٥٣.

٤ المستدرك، ١ / ٥٦٠-٥٦١.

٥ ينظر: البرهان، ١ / ٢٦٩-٢٧٠.

القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز..[١]

وفيما يخص سورة القمر فإن تسمية السورة تبدو متأتية من خلال التأكيد على حضور هذه الآية الكونية العظيمة في حياة الناس عامة والعربي منهم بشكل خاص، ذلك أن حضور القمر في فضاء صحراوي، وفي حياة ووعي إنسان متأمل، جواب للفضاء، رفيق للصحراء، لابد أن يكون حضوراً له أهميته، ولاسيما أن أهمية القمر في حياة عرب قريش تستمد أصولها مما سنتطرق له بعد قليل وذلك لما للقمر من أهمية في حياة الإنسان العربي من حيث كونه مقدساً عندهم من جهة ومصدر منافع عدة من جهة أخرى، ويوم القيامة من حيث كون خسفه علامة على طي صفحة الحياة الدنيا وإشارة إلى بداية البعث والنشور دخولا في حياة خالدة.[٢]

إن تسمية سائر سور القرآن الكريم إنما يكون لهدف في السورة، فسميت البقرة مثلا لقرينة ذكر قصة البقرة وأهمية الحكمة الواردة في قصتها مع بني إسرائيل، وسميت سورة النساء لما تردد فيها من أحكام النساء وسورة "ق" لما تكرر فيها من مفردات احتوت على حرف القاف، وهكذا..[٣]

ويكاد يكون ثابتاً في مذهب جمهور العلماء أن أسماء السور توقيفي، يقول صاحب البرهان وينقل عنه السيوطي أنه "ينبغي البحث عن تعداد الاسامي هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات، فأن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد" وتلك إشارة مهمة تقتضي أن تكون قضية تسمية السور توقيفية لأنه بالتوقيف وحده تثبت الأسماء بسورها مما يليق بجلال القرآن

---

[١] ينظر: المصدر نفسه، ١ / ٢٧٠.

[٢] ينظر مثلا: سورة القيامة، الآيات ٧-٩.

[٣] ينظر: البرهان، ١ / ٢٧٠-٢٧١.

العظيم ووحدته واستقرار أعلام سوره ولذلك أثر مهم في عملية تلقيه عبر العصور، وفي هذا يكمن تعليل قول الزركشي.. (وهو بعيد) ولا يخفى ما في هذه الإشارة من دقة وذكاء، ذلك أن القضية لو لم تكن توقيفية فان الأمر سيختلف ويتفرق لان قارئ القرآن الفطن، الذي أطلقت عليه نظريات القراءة الحديثة: القارئ الجاد سيكون قادراً على وضع تسميات كثيرة للسورة الواحدة تتناسب ووفرة معاني تلك السورة وغنى مستوياتها الدلالية، وهذا لا يتفق وجلال إحكام القرآن الكريم وإتقانه وانسجام إعجازه والهدف من نزوله، ودعوته إلى وحدة الأمة الإسلامية، وقد أكد توقيفية أسماء السور ووحدة تأليفها وترتيب آيها في الكتابة علماء ودراسات أشارت إلى أن كل ما يتعلق بشأن القرآن جرى بتوقيف من الرسول عليه الصلاة والسلام يقول صاحب الإتقان: "وقد ثبت أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار.." [١] ويقول الإمام الحافظ أبو عمر الداني "القول عندنا في تأليف السور وتسميتها وترتيب آيها في الكتابة أن ذلك توقيف من رسول الله (ص) وإعلام منه به لتوفر مجيء الأخبار بذلك واقتضاء العادة بكونه كذلك وتواطؤ الجماعة عليه"[٢] على عكس ما أشار إليه بعض المستشرقين من أن اختيار اسم السورة لا يخضع إلى قاعدة عامة، وان الناس استخدموا أية مفردة لتكون عنوانا للسورة ولذلك كان لبعض السور اسمان أو أكثر وكلا الاسمين يدور بين الناس، محاولين الاستدلال بذلك على أن أسماء السور من وضع العلماء الذين ادخلوها لاحقاً بما يناسب الإشارة إليها، [٣] لكن الجواب على ذلك يكمن في أن أسماء السور كانت معروفة بين الصحابة في زمن النبي الكريم

---

[١] ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي١/١٥٠.

[٢] البيان في عد آي القرآن، ورقة ٩و نقلاً عن محاضرات في علوم القرآن، د. غانم قدوري، ٨٧.

[٣] ينظر: أسماء السور.

(ص) ولكنها لم تكتب في المصحف في أوائل السور، لأنهم لم يكتبوا في المصحف إلا ألفاظ الوحي لكي لا يختلط الوحي بما ليس منه، لكن هذه الأسماء كتبت في المصاحف زمن الحجاج بن يوسف الثقفي (١٠٥ هـ) [١].

(٢)

اسم السورة علم لها، وتحيل مفردة العلم على الجبل والعلامة[٢] وهو علامة تدل على المسمى بدون واسطة حيث يميز اسم العلم صاحبه من غيره.. [٣] ولقد أثارت أسماء الأعلام من الدراسات والمناقشات قديما وحديثا وفي مختلف الدراسات الأنثروبولوجية واللسانية والمنطقية ما يصعب حصره، كما أن الباحثين في الرمزية احلوا اشتقاق أسماء الأعلام مكانة مرموقة مثل تودروف ودان سبرير لأنه وسيلة لنقل العلامات اللغوية ومنها أسماء الأعلام من الاعتباطية إلى القصدية أي أنها تصبح ذات قيمة رمزية، وكذا فعل بعض الباحثين في الشعرية..[٤] كما خصصوا فقرات مهمة لبيان أسماء الأعلام ووظيفتها وحقيقتها وكيفية الاشتقاق منها، فأسماء الأعلام تحمل تداعيات معقدة تربطها بقصص تاريخية وأسطورية، وتشير قليلاً أو كثيراً إلى أبطال وأماكن تنتمي إلى ثقافات متباعدة، في الزمان والمكان.. [٥]

ووسط زحمة الآراء التي اهتمت بالعنوان والأعلام نجد أن أعلام الرسل والأنبياء والقادة، تشكل وحدة أسلوبية مثيرة تتسم بأهمية بالغة من حيث الطاقة الدلالية التي تكمن فيها، حيث يمثل حضور العلم انبثاقة كاشفة لوقائع وأحداث تاريخية تنثال منها وفيها ومعها أسماء أخرى وإشارات متعددة تحمل دلالات كثيفة تتبلور علاماتها حتى تتداخل وينضوي بعضها إلى

---

[١] ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ١ / ٨٥.

[٢] ينظر: لسان العرب، مادة (علم).

[٣] ينظر: معاني النحو، ١ / ٧٦.

[٤] ينظر: تحليل الخطاب الشعري، د. محمد مفتاح، ٦٤ ومصادرها.

[٥] ينظر: المصدر نفسه، ٦٥.

بعض لتكمن جميعها في هذه الوحدة الأسلوبية التي أطلق عليها علماً فما أن يذكر اسم سورة القمر حتى تنبثق أمام قارئ القرآن المتأمل صورة القمر بجماله وجلاله منشقاً في واحدة من آيات الله القاهرة، وحتى ينهض الوعيد المتواصل وقصص العذاب التي توالت في السورة، وما أن يذكر اسم الرسول "نوح" عليه السلام حتى تحضر قصة الفلك والطوفان وعصيان القوم وهلاكهم، وكذلك "عاد" المكذبة التي يشير ذكرها إلى قصة النبي هود عليه السلام وعذاب قومه بريح صرصر تنزع الناس لترديهم هالكين، وكذلك ثمود التي تنبثق أمامنا بذكرها قصة النبي صالح عليه السلام وفتنة الناقة وعصيان القوم حتى حل بهم العذاب. وهكذا يفعل اسم النبي "لوط" عليه السلام الذي يحيل على قوم الفاحشة، واسم فرعون الذي يحيل على الطغيان والعصيان والجبروت، فتحضر مع الاسم قصة موسى وبني إسرائيل وفلق البحر والتيه في صحراء، بيد أن اسم العلم فضلا عن ما يثيره من هذه الدلالات يبقى متصلا بأصوله المعجمية وبدلالات تلك الأصول يبثها في السياق بشكل مباشر أو غير مباشر ولذلك غاب اسم النبي "محمد" عليه الصلاة والسلام من بداية السورة، مع انه كامن في فعل الأمر (تولَّ) في الوحدة القصصية الأولى وهي تتحدث عن كفار قريش وعنتهم وعصيانهم لان ما يحويه اسم العلم هذا من دلالات الصدق والكرم والنبل وكل الصفات المحمودة التي تدعو إلى التبجيل والثناء، لا يتلاءم وسياق الغضب والتهديد والوعيد على التكذيب والأعراض والعنجهية وإتباع الهوى ولذلك ظل اسم العلم كامنا في فعل الطلب وفي سياق الحديث عن قريش بينما ذكر اسم النبي "نوح" عليه السلام لما في أصول مادة علمه المعجمية من دلالات الحزن والتوجع والنوح.. [١] مما ينسجم ومصير العذاب الذي ينتظر عصاة الأنبياء وغاب

---

[١] ينظر: لسان العرب، مادة (نوح) والمفردات في غريب القرآن، الراغب الأصبهاني، إشراف د. محمد احمد خلف الله، ٧٤٤

اسم النبي "هود" عليه السلام لما في أصوله المعجمية من دلالة الرجوع والعودة إلى الله تعالى بينما ذكر اسم "عاد" البائدة، المقترنة بريح العذاب والدمار.

كذلك غيب النص اسم النبي صالح عليه السلام لما في اسم العلم من معاني الصلاح والانسجام والحكمة مما لا يتلاءم وغضب السورة على فتنة القوم وعصيانهم فكان ذكر ثمود ووقائع نكرانها أكثر مناسبة لسياق السورة من ذكر اسم نبيها الذي أشارت أليه الآيات من خلال سرد القصة والحوار الذي تخلله "ابشرا منا واحداً نتبعه.. أألقى عليه الذكر من بيننا، بل هو كذاب اشر".

إن ضمير الغائب هنا يحيل على الاسم الكامن في أحداث القصة وفي السياق الخارجي الذي تعود عليه ضمائر المفعول به والمجرور والمبتدأ في الآيات الثلاث، وتفسره آيات كريمات في سور أخرى، فالسرد بضمير الغائب مخضب بزمنية ماضية، وفيه عودة إلى أزمان غابرة وأحداث وقعت ودلالات كامنة يوحي بها النص إن هو لم يصرح..

أما النبي (لوط) فقد ذكر بإضافة القوم إليه في سياق الحديث عن تكذيبهم، واللوط بمعنى الالتصاق، ولاط الحوض بالطين إذا غلفه.. وقيل اشتق من لفظ لوط الناهي عن فعل اللواط، وهو فعل قومه [١] وان مكان قوم لوط هو موقع البحر الميت، وإنما تكون هذا البحر من الزلزال الذي وقع فيهم وأبادهم.. [٢] وإذا كان للمضاف أن يكتسب شيئا من المضاف إليه أو ينال بعضا من صفاته فان مفردة قوم هنا أخذت من العلم "لوط" دلالة الالتصاق والتغليف بان ضرب على قلوبهم فغلفها الصدأ وران عليها التكذيب، بينما

---

[١] ينظر: المفردات في غريب القرآن، ٦٨٩.

[٢] ينظر: قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ١١٣.

اكتسب المضاف من العلم في الآية الأخرى الشمول بالرحمة والإحاطة بالنجاة (إلا آل لوط..).

ومما يناسب سياق التهديد والإنذار ذكر فرعون، وال فرعون هم الطغاة الأبالسة الذين عرض القران الكريم قصتهم مع النبي موسى عليه السلام في سور متعددة، وهو يعرضها الآن ابلغ عرض في أوجز سرد وأكثف تبئير، في آيتين اثنتين فقط، ((ولقد جاء آل فرعون النذر، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم اخذ عزيز مقتدر..)). إن مفردة (كلها) دون استثناء ودون لين أمام بلاغ الرسول الكريم الذي لم يذكر اسمه لدلالة سياق الآية عليه، مفردة كلها التوكيدية الشاملة هي التي جعلت التكذيب سببا لعذاب شامل، فجاءت الدلالة في الجملة متصاعدة تصاعداً رهيباً من خلال (أخذناهم) بصيغة الجمع والمفعول المطلق الوارد لبيان النوع، ومن خلال جبروت المضاف إليه (نحويا) مع صفته(عزيز مقتدر).

(٣)

القمرة لون إلى الخضرة، وقيل: بياض فيه كدرة، وسنمة قمراء: بيضاء، والأقمر حسب ابن قتيبة: الأبيض الشديد البياض، وسحاب أقمر اشتد بياضه لكثرة مائه وأتان قمراء: بيضاء وليلة قمراء أي مضيئة وأقمرت ليلتنا أي أضاءت واقمرنا: أي طلع القمر علينا، والقمر.. قمر السماء والقمر حسب ابن سيدة يكون في الليلة الثالثة من الشهر وهو مشتق من القمرة، والجمع أقمار، وأقمر صار قمراً، ويرى الجوهري أن القمر بعد ثلاث إلى آخر الشهر يسمى قمراً لبياضه، والقمر في القربة: الفضاء والفساد، والقمر: الأرق، والقمر: تحير البصر، وقمرت الإبل: رويت من الماء، وماء قمر: كثير، وقمر ألكلأ: كثر وأقمر الثمر: إذا تأخر ايناعه فلم ينضج حتى يدركه

البرد فتذهب حلاوته وطعمه [١] من هنا نجد المدلولات اللغوية لمادة (قمر) تتجه اتجاهين:

١-مدلولات إيجابية وهي السائدة وتدور حول قمر السماء، الإضاءة، الخضرة والبياض، كثرة الماء، الرواء والخصوبة.

٢-مدلولات سلبية وهي الأرق والتحير، الفراغ والفساد وتأخر نضج الثمر حتى تذهب حلاوته..

ولم يخرج ما جاء في المعاجم الأخرى عما أورده اللسان، فالقمر في مقاييس اللغة مثلا اصل صحيح يدل على بياض في الشيء، ومن ذلك قمر السماء، سمي قمرا لبياضه.. [٢]

والقمر جرم سماوي صغير يدور حول الأرض ويكون تابعاً لها، فهو جرم معتم صخري كالأرض تماما يستمد نوره من ضياء الشمس، والأرض بقمرها تدور حول الشمس التي يسقط ضوؤها على وجه القمر عندما يكون مواجهاً لها وللنصف المظلم من الأرض.. [٣] وقد ورد القمر في القرآن الكريم ستاً وعشرين مرة وتنوعت مشاهده عبر الآيات والسور من البزوغ في محاججة النبي إبراهيم عيه السلام قومه وحتى الانشقاق والخسوف يوم القيامة، فهو بازغ ومسخر ومنير، وهو ساجد في قصة النبي يوسف عليه السلام وإشارة لعدد السنين والحساب جارياً لأجل مسمى، متحولاً من هلال إلى بدر إلى عرجون، ويقسم به تعالى ثلاث مرات: (كلا والقمر.. المدثر، ٣٢) و (والقمر إذا اتسق.. الانشقاق، ١٨) و (والقمر إذا تلاها.. الشمس، ٢.

---

١ ينظر: لسان العرب، مادة (قمر).

٢ ينظر معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام فاروق، ٥/ ٢٥.

٣ ينظر: الإنسان والقمر، د. محمد يوسف حسن، ٩٩-١٠٠.

وللقمر عند العرب قديماً مكانة خاصة فهو كبير الآلهة وسيد المعبودات ولذلك ذكر في القرآن على رأس أوثانهم: "ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا" [١] وتسمية سورة قرآنية باسم القمر فيها دلالة كبيرة على أهمية هذه الآية الكونية في حياة البشر بحيث نجد الخالق سبحانه وتعالى يقسم به في السور المشار إليها ولأن الله عز وجل أدرى بمن وما خلق فانه يدرك مدى انبهار الإنسان بالظواهر الكونية من حوله، ومدى تأثيرها في نفسه فانه ظل يؤكد عليها ولا سيما في السور المكية، وظل يدعو إلى تأملها من اجل استشراف القوة الكامنة وراء خلقها وإظهارها بهذا الكمال والانسجام "ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا، وجعل الشمس سراجاً.." [٢] يقول الأمريكيان أغروس وستانسيو: لأنه إذا لم يكن هناك موجد من قبل فلا شيء يمكن أن يوجد الآن، فالعدم لا ينتج عنه إلا العدم، فلا بد أن تكون المادة من خلق عقل أزلي الوجود، وهذا يشير إلى وجود عقل أزلي خلق كل الأشياء، وهذا هو الذي نعنيه بعبارة.. الله.." [٣] والتفكر في انسجام الكون والمخلوقات هو صفة أُولي الألباب " الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك" [٤] لأنهم بهذا التأمل سيصلون إلى نتيجة مفادها أن وجودنا في هذا الكون المنسجم يقتضي أن يكون للكون خواص معينة، ومن ضمن هذه الخواص وجود نظم متماسكة بفعل الجاذبية كالنجوم والمجرات [٥] وهكذا.. وبعد رحلة طويلة من البحث والتنقيب وصل العلم في منظوره الجديد إلى أن "النظرة

---

[١] سورة نوح، ٢٣.

[٢] سورة نوح، ١٥، ١٦.

[٣] ينظر: العلم في منظوره الجديد، روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، ٦٦.

[٤] سورة آل عمران، من الآية ٩١.

[٥] ينظر: العلم في منظوره الجديد، ٦٦.

الجديدة تقود مرة أخرى إلى الاعتقاد بوجود قدرة توجه الكون بأكمله وجميع نواميس الطبيعة، وجميع خواص المادة إلى غاية، ونحن نطلق على هذه القدرة اسم الله.." [١] وإذا كانت العرب أمة متأملة شاعرة فقد كان القمر بلا شك واحدا من الظواهر الكونية التي لفت انتباهها تفكرا وتأملا وإعجابا، ولذلك كان عندهم قبل الإسلام هو سيد الآلهة، فهو الراعي والحامي والمحب، فـ(ود) هو القمر وهو الإله الرئيس عند ثمود وقريش وعند المعينيين، كما انه الإله المعبود عند بقية العرب الجنوبيين، ومتى ورد اسمه في نص قصد به القمر، وهو عندهم الأب رمز الإيجاد والإظهار والإصلاح والرعاية، وقد كتب اسمه وحفر على أخشاب وأحجار أبواب المباني لتكون في حمايته تبركا باسمه وتيمنا به، كما علق اسمه على أعناق الأطفال تمائم وتعاويذ تحفظهم من الشر، وفي لفظة (ود) يكمن معنى المحبة والمودة، وقد خصصت له جملة معابد يعبد فيها، ومن آلهة المعينيين كذلك (كهلن) الذي يرمز مثل (ود) إلى القمر المعبود.. [٢] وورود (ود) في سورة نوح دليل على قدم عبادته وكون تقديسه عقيدة متجذرة لدى الأمم القديمة.

وتعبد السبئيون إلى الإله (المقه) إلههم الكبير وهو القمر ويعد في منزلة (ود) عند المعينيين وهو المقدم عندهم على سائر الآلهة وقد تعبد به آهل الساحل الأفريقي المقابل لليمن، ويظهر اثر ذلك في الخط الحبشي حتى اليوم، وقد قيل أن معنى (المقه) الثاقب اللامع، وقد كني عن (المقه) بالثور، ورمز إليه بنسر وبصور الحيات، وهذه الصور من الرموز الدالة على القمر الإله عند قدماء الساميين، وقد استنتج(دنلف نلسن)أن الثور رمز يراد به القمر..[٣]

---

[١] ينظر: المصدر نفسه، ٦٨ -٦٩.

[٢] ينظر: المفصل في تاريخ العرب، د.جواد علي، ٦/٢٩٢-٢٩٥.

[٣] ينظر: المصدر نفسه، ٦/٢٩٦-٢٩٩.

وورد في النصوص السبئية اسم إله هو (هوبس) يقصد به القمر ومعنى هوبس: اليابس الجاف لقدرته على التأثير بالمد والجزر، وعند شعب (قتبان) يكون (عم) هو الإله القمر.

وترد لفظة (أبني) في الكتابات القتبانية علما على إله ذكر هو القمر كما وردت مفردة (شيمن..) ومعناها الحافظ الحامي..[١]

من ذلك ندرك كم كان القمر مقدسا عند العرب، ولذلك ذُكّر عندهم بينما كان مؤنثا عند غيرهم وقد كانت الجزيرة العربية بدءاً باليمن وحضرموت جنوبا حتى الرافدين شمالا تعتمد التقويم القمري المعقد الذي يتطلب دقة في الحسابات لا يتطلبها التقويم المصري المعتمد على الشمس، لقد ظهر أن القمر اقدر من الشمس على تقسيم دورة الكرة الأرضية إلى اثنتي عشرة دورة، وانه أكفأ في قياس الزمن، ولذلك فما زال في وسعه أن يهيئ مقياسا ثابتا لتنظيم الشؤون المختلفة "والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم.." [٢] وعلى الرغم من مزاحمة الشعوذة والكهانة والسحر له من حيث هو معبود فقد ظل إلى قبيل ظهور الإسلام سيد الآلهة في مكة وكان يرمز له بالصنم (هبل) وقد صنع من العقيق الأحمر، وكان في جوف مكة أمامه سبعة أقداح تعنى بحاجة الإنسان مدى حياته، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله، وفيه قال أبو سفيان بن حرب حين ظفروا يوم أحد.. أعلُ هبل..[٣]

هذا هو المعبود القمر عند العرب، تمثال رجل كأعظم ما يكون الرجال وأكملهم كما يقول ابن الكلبي تعددت أسماؤه وصفاته فهو رمز القوة والعزة والهيمنة والإضاءة والحكمة، وهو رمز الرأفة والحب والمودة، فضلاً

---

١ ينظر: المصدر نفسه.

٢ سورة يس، ٣٩.

٣ ينظر: الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، د. احمد كمال زكي، ١٠٤ومصادرها.

عن كونه يرتبط عند العرب بالمطر، فمنازله هي التي تؤطر الأنواء وتحكمها، ولا يخفى ما للماء من أهمية في حياة الإنسان العربي وهو يصارع جدب وعطش الصحراء متنقلاً باحثاً عن مفقوده في واحات البوادي، فالقمر إذن رمز للخصب والخير واجتماع هذه الدلالات كلها في القمر جعلته مثالاً في الوعي الجمعي العربي، ورمزاً يهرع إليه الشعراء وهم يشكلون مثلهم البطولي في الفخر والمدح والرثاء والغزل كرماً وحكمة وبهاءً مما كان عرب قريش يتباهون به من صفات، ويصنعون منه نماذجهم الإنسانية الراقية، هذا القمر يوضع اسماً علماً لسورة قرآنية تأتي عظمة الخالق المقتدر عليه فتصدعه أمام أعينهم وتشقه إلى نصفين منفصلين على مرأى الأشهاد من قريش وأمام العرب في مكة وخارجها، فإذا كان الله تعالى قادراً على شق وتصديع هذا المثال المعبود، فهو قادر بالبديهة على تحطيم الكفار الذين يقودون معارك الشرك ضد الإسلام وضد رسوله الكريم لأنهم أصغر شأناً من هذه الآية الكونية الكبيرة التي بهرتهم فانشقاق القمر إذاً إسقاط وإلغاء وتسفيه لعقائد الجاهلية التي عبدت الكواكب منذ القديم، وصنعت لها آلهة من الحجارة كانت ما تزال موجودة في الكعبة حين نزول هذه السورة، تلك العقائد التي حاورها النبي إبراهيم عليه السلام وتوصل إلى ضرورة نبذها والانصراف عنها إلى عبادة خالقها المبدع وكذلك فعل النبي نوح من قبله..[١]

وما دام سيد الآلهة قد انشق، وما دام المثال قد تصدّع على مشهد منهم فإن ذلك يعني زوال القدسية التي تزول بزوالها دواعي العبادة، أما دلالة الاقتدار الإلهي الذي صدّع معبود الكفار فإنها ستمتد لتشمل كفار القصص الست بالتصدع والعذاب لأنهم لم يستجيبوا لداعي الإيمان ولم ينصرفوا عن الشرك، ولم يؤمنوا بدعوة الرسل الذين بشروهم بالعودة إلى الأصل، إلى خالق القمر الذي بهرهم قوة وجمالاً وتجلياً على الأرض ومن فيها، ويظل القمر–

---

[١] ينظر مثلاً: سورة الأنعام ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨.

علماً لهذه السورة – دعوة للتأمل في المنطلقات الدلالية والعبر الناجمة عن حضور هذه الآية الكونية، فمن سماته أن وجهه في دورته يظل مقابلاً للأرض، شاهداً عليها، وفي كل شيء بالقمر عبرة للإنسان، يولد هلالاً فيه نضارة وفتوة وقوة، ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدراً، ثم يأخذ بالتناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم يغشاه سهوم وشحوب..[١] وهذه الدورة هي دورة المخلوقات جميعها المحكومة بدقة هذا النظام الكوني الموحد والإنسان في طليعة هذه المخلوقات، إن جمال القمر وهو ينثر في ظلام الليل لآلئ تنساب عبر سماء لا متناهية هو أول ما يبهر الإنسان، وإذا كان الجمال في العلوم الدقيقة اليوم وفي الفنون على السواء هو أهم مصدر من مصادر الوضوح والاستنارة [٢] فإننا ندرك جيداً أهمية تركيز القرآن الكريم وتأكيده على إظهار جمال الكون والكواكب والطبيعة قمراً وشمساً وزرعاً ومياهاً ومخلوقات شتى..

وهكذا تزول دلالة قدسية القمر –بانشقاقه– معبودا من دون الله، وتبقى دلالته آية على قدرة الله، وهكذا تحكم دلالات العنوان هيمنتها على وحدات السورة الثمان من خلال سيطرة أسلوبية الكشف عن مقدرة الباري عز وجل على دحر الكفر على مر العصور والأزمان لعل كفار قريش يرتدعون عن كفرهم، ومن ورائهم كل الكفار في مستقبل الزمان، ولذلك انقسم الحديث عن قريش على قسمين، الأول في مطلع السورة، والثاني بعد انتهاء سرد هلاك الأمم البائدة، بحيث أحاط الخطاب إحاطة دائرية بقوم الرسول الكريم محمد (ص) فهو إذ يقفل عليهم الدائرة يقول لهم: لا مناص، إما الأيمان وإما الهلاك وتلك هي قصص من لم يؤمن بالرسل من قبلكم، أخذهم العذاب الأليم بكفرهم..

---

١ ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٧ / ٢٥.

٢ ينظر: العلم في منظوره الجديد، ٤٦.

(٤)

في حديث أبي واقد أن رسول الله (ص) كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار لاشتمالهما على الوعد والوعيد وبدء الخلق وأعادته، والتوحيد، واثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.. [١] وهكذا نجد أن المكونات اللغوية في وحداتها البنيوية تفصح عن الدلالات الآتية:

١–التهديد الذي يلوح بمطلع السورة معلنا اقتراب يوم القيامة حيث يتبدى مصير الكفار الذين اعرضوا واتبعوا أهواءهم ولم تغنهم النذر، ويظل صوت التهديد ساريا عبر آيات السورة من خلال

أ–مصير قوم النبي نوح عليه السلام الذين عوقبوا بالطوفان.

ب–مصير قوم عاد الذين عوقبوا بريح صرصر.

جـ–مصير قوم ثمود الذين عوقبوا بالصيحة.

د–مصير قوم لوط الذين عوقبوا بالحاصب.

هـ–مصير آل فرعون الذين عوقبوا بالغرق.

و–هزيمة كفار قريش وان اجتمعوا على العدوان.

وفي سين الاستقبال في (سيهزم الجمع ويولون الدبر..) دلالة عظيمة على الوعد الحق في انهيار أمة الكفر وخذلانها وان اجتمعت على حرب الإسلام والموحدين.

وفي (سين الاستقبال)هذه بشارة كبرى للمسلمين الموحدين في كل زمان ومكان على انتصار الدعوة وهيمنة صوت الله تعالى، وتمام نوره من خلال العهد القرآني العظيم "والله متم نوره ولو كره الكافرون".[٢]

---

١ ينظر: تفسير القرآن العظيم، ٢٦٠/٤.

٢ سورة الصف من الآية (٨).

ز-التهديد بعذاب أدهى وأمر وهو عذاب الساعة، حيث ينتظرهم عذاب السعير وهناك يجدون من هول المعاناة ألوانا.

ح-التهديد بعظمة أمر الله وسرعة نفاذه لاتسامه بالحسم والهيمنة والشمولية والسيطرة التامة على مقدرات الكون.

ط- التهديد بعقابهم على كل شر فعلوه لأنه قد حفظ في الزبر، ويتعاظم صوت التهديد من خلال استقراره في الجمل الاسمية الدالة على الثبوت.. بل الساعة موعدهم، والساعة أدهى وأمر. إن المجرمين في ضلال وسعر.. وما امرنا إلا واحدة كلمح البصر.. وكل شيء فعلوه في الزبر.. وكل صغير وكبير مستطر..

هكذا ليمتد الثبوت قانونا أبديا تهتدي به البشرية تجنبا للكفر وتمسكا بعرى الهداية.

٢-استعراض حركة العقيدة الإسلامية في التاريخ البشري كله، هذه العقيدة التي قامت على حقائق أساسية واحدة هي الدينونة لله وحده بلا شريك، والتلقي في هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ مع الاعتقاد بان الدنيا إنما هي دار ابتلاء لا دار جزاء، وان الجزاء إنما يكون في الآخرة، وان حرية الاختيار التي أعطاها الله للإنسان ليميز الهدى من الضلال هي مناط هذا الابتلاء، إن وحدة العقيدة الإسلامية عبر التاريخ تؤيدها دعوة الرسل إلى الله الواحد (١): نوح وهود وصالح ولوط وموسى وغيرهم ممن كان محمد عليه الصلاة والسلام خاتمهم، كلهم قالوا قولة واحدة..(يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غيره) (٢)

٣- إن دعوة القرآن الكريم للكفار إلى العبرة والاتعاظ بالتأمل في مصير الكفر، هي الدلالة الكامنة في أعماق الوحدات السردية التي تشكلت منها

---

١ ينظر: في ظلال القرآن، ٤/٤٩٢.

٢ سورة هود، من الآية ٥٠.

السورة، والتي تضمنت في ظاهرها التهديد والوعيد وضمت في صميمها الدعوة إلى تجنب مصير العذاب والخراب لأنه لا شيء ما نعهم من الله الذي يأتيهم من حيث لم يحتسبوا، ويأخذهم وهم سادرون.

٤-مواساة النبي الكريم على عصيان قومه من خلال عرض معاناة الرسل والأنبياء من قبله.

٥-إن السورة تختتم دلالاتها الزاخرة بالوعيد، بقصص الأقوام الغابرة المكذبة، وبقصص الأنبياء الصابرين، تختتم ذلك العصف الشديد بالكفر والكفار بما يطمئن المؤمنين الأبرار..

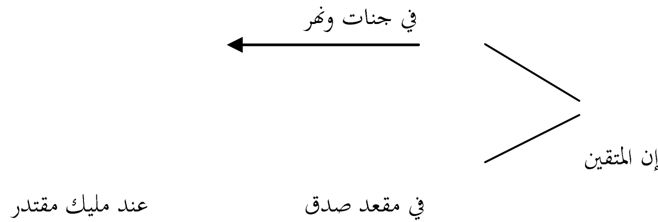
إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر،والمتقون هم الذين يحذرون من الله عقوبته، وهم "الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدىً من ربهم وأؤلئك هم المفلحون." البقرة (٣-٥).

وهكذا تشكلت السورة من ثمان وحدات، ست منها تناولت بالأجمال قصص الكفار مع رسلهم وما حل بهم من عذاب إذ استغرقت الوحدة الأولى الآيات ١-٨، التي حكت عن قريش، بينما استغرقت قصة قوم نوح الآيات ٩-١٧، في حين عرضت قصة قوم عاد في الوحدة الثالثة من خلال الآيات ١٨-٢٢، وشكلت الآيات ٢٣-٣٢ بنية الوحدة الرابعة التي عرضت قصة ثمود، وطرحت قصة قوم لوط عليه السلام من خلال الوحدة الخامسة بالآيات ٣٣-٤٠، أما الوحدة السادسة فهي التي طرحت قصة آل فرعون وشكلتها الآيات ٤١-٤٢، وفي الوحدة السابعة عودة إلى الوحدة الأولى بعد إن أجمل السرد إشارته إلى هلاك المكذبين برسلهم من قبل، عاد ليواصل خطابه لقريش بعد أن عرض لكفارها قصص الأمم السالفة التي كذب كفارها الرسل:

"اكفاركم خير أم لكم براءة في الزبر.." إذ تكمن في هذا الاستفهام الإنكاري كل دلالات الوعيد بعد ان ساق لهم الأدلة والبراهين على اخذ من عصوا وكذبوا بالعقاب الشديد "ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، حكمة بالغة فما تغني النذر.."

ويتكثف في الوحدة الأخيرة تواز دلالي، حيث تختصر الآيتان الأخيرتان (٥٤-٥٥) الحالة المضادة لأحوال الكفار بطرحها حالة المتقين في ابلغ إيجاز: جملة اسمية واحدة، ممتدة الفضاءات، دالة على الثبوت والاستقرار لخلوها كليا من الأفعال، بينما قام تعدد ظروف وأسماء المكان، والاقتراب من رب العزة، بإضافة الظرف إليه"عند مليك مقتدر" بالإبلاغ الجليل عن مقام المتقين

ولعل في هذه الوحدة يكمن الانفراج الدلالي الوحيد كاملا وتاما في السورة، لان ما نستشعر فيه انفراجا من خلال بعض الآيات إنما ورد وسط



عاصفة الغضب والتهديد المحتدمين في السورة، ولذلك فهو ما يلبث أن يتشرب بروح الوعيد المهيمنة على الخطاب: وحملناه على ذات ألواح ودسر، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر. فدلالة الحنان والرعاية الكامنة في الفعل (حملناه..) المشمول بها ضمير الهاء العائد على النبي نوح عليه السلام، وكذلك دلالة الرعاية الكامنة في: تجري بأعيننا وحفظنا، فهذه التشكيلات اللغوية ومحمولاتها الدلالية تصطدم بمفردة (كُفِر..) حيث يحضر مشهد العصيان في الفاعل المغيّب الذي بني فعله للمجهول كراهية التصريح بالفاعل (الكفار) والتأكيد على حضور من أوذي واتهم بالجنون وازدجر، كما

أن الترغيب والدعوة إلى وعي آي القران في: ولقد يسرنا القرآن للذكر يعقبه الاستفهام الإنكاري الطافح بالتهديد لمن لا يدكر، بينما تأتي الرأفة بال لوط وسط تشكيلات دلالية، ضاجة بالعذاب (إنا أرسلنا عليهم حاصباً) إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر، ولقد أنذرهم بطشتنا، إذ يحيط عذاب الحاصب والبطش بالانفراج الدلالي إذ نهض الاستثناء بمهمة فرز من آمن مع النبي لوط جزاء إيمانهم، كما أن الفعل (نجى) المضعف يوحي بالقوة وكثافة الاقتدار على الإنقاذ، وذلك دليل آخر على قوة العذاب وجبروت العقوبة بحيث تطلبت نجاة آل النبي فعلا مضعفا.

(٥)

تهيمن البنية السردية على سورة القمر، والسرد لغة هو التتابع مع جودة في السياق، والسرد هو النسج قائما على الموالاة، وهو تداخل الحلق بعضها مع بعض، وفي القرآن (وقدر في السرد) [١] أي اجعله على القصد وقدر الحاجة [٢] عرفه بعضهم بأنه نقل الحدث من صورته الواقعة إلى صورة لغوية [٣] غير أن ما ينبغي التأمل فيه ونحن نقارب النص القرآني هو كيف تسري الحياة في تلك المادة اللغوية، وكيف تتحرك الحيوية المفعمة في ثنايا الخطاب القرآني.

إن ذلك بالطبع لن يتم إلا بوعي اللغة من خلال تفعيلها جماليا وتركيبيا وسياقيا تفعيلا من شانه ملامسة الدلالات المبثوثة في ثنايا الألفاظ والأفعال، لكن السرد الفني لا يكتفي عادة بالأفعال كما يحدث في الكتابة

---

١ سورة سبأ، من الآية ١١.

٢ ينظر: لسان العرب، مادة سرد.

٣ ينظر: الأدب وفنونه، عز الدين إسماعيل، ١٨٧.

التاريخية بل نلاحظ دائما أن السرد الفني يقدم أحداثه من خلال قضايا مهمة نفسية وجمالية تحرك النص لتكسب السرد فاعلية وحيوية [١].

أن ما تشي به تعريفات السرد فنيا وجماليا يحيلنا على تناول هيكل النص القرآني بوصفه بنية سردية افضائية تسمح لنا باستكناه تمظهراتها السردية الإعجازية ولا سيما في معطياتها البنائية أو في التجليات الباطنية التي لا يمنحها النص بمجرد ملامسته، وإنما تتبدى بفعل ذهنية القارئ الموصولة بالاحساسات الجمالية المرهفة...[٢]

إن في تتابع القصص في السورة الواحدة كما هو في سورة القمر تحقيقا للجانب الحركي في التوجيه القرآني، حيث يواجه القران الكريم واقع الدعوى في كل مرحلة بالتوجيه المكافئ للموقف، فالقصص في القرآن يتصدى لمقتضيات المعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة تصديا حيا فاعلا ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها، متوافيا مع أهدافها، مصدقا في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقرر الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها إلا أن ما يبدو واضحا في السرد هو أن استعراض حركة العقيدة الربانية في أجزاء مهمة من التاريخ البشري هو الهدف البارز والمقصود فيه.. [٣]

يرد السرد في القران الكريم مسرودا من قبل عليم مهيمن، وهو لا سيما في سور التهديد والوعيد التي تتحدث عن الكفار أو تخاطبهم يتسم بالقوة والإيقاعات المكثفة التي لا تخاطب وجدان المتلقي حسب، بل وتقرع فضاءاته أينما التفت، وتقفل عليه أبواب الخلاص إن هو لم يرجع عن الكفر والعصيان.

---

[١] ينظر: المصدر نفسه، ١٨٧.

[٢] ينظر: مستويات السرد ألإعجازي في القرآن الكريم، شارف مزاري، ١٦.

[٣] ينظر: في ظلال القرآن، ٤٩٥-٤٩٦.

إن ضبط وتقصي وظائف السارد في السرديات الحديثة التي تتمظهر عادة في الخطاب السردي تطلعنا على سمات سردية تتجلى بأعجاز في الخطاب القرآني فنجد الوظائف الآتية [١].

١-الوظيفة التنسيقية التي تعمل على التنظيم الداخلي الدقيق للخطاب القصصي داخل السورة.

٢-الوظيفة الانتباهية، وتتمثل في تفعيل عوامل الاتصال مع المتلقي، وكثيرا ما يتحقق ذلك من خلال السرد الإيقاعي إذ نجد التكرار والتوازيات والفواصل تفعل فعلها في هذا المجال.

٣-الوظيفة الإبلاغية، وتتجلى في إبلاغ رسالة للقارئ سواء أكانت تلك الرسالة هي الحكاية نفسها أو كانت مغزىً أخلاقيا أو إنسانيا، وفي السرد القرآني تجتمع هذه الأمور معا.

٤-الوظيفة الافهامية أو التأثيرية وتتمثل في إدماج القارئ بعالم الحكاية والعمل على إقناعه بمغزاها والعبر منها من خلال ذلك، التأثير عليه، وتبرز هذه الوظيفة جلية في الخطاب القرآني.

٥-الوظيفة التعبيرية، والمراد بها تبوأ السارد المكانة المركزية في النص حيث تتجلى الذات الإلهية الساردة وهي تفصح عن طرق الهدى والصلاح، ترغب وترهب تحذر وتنذر وتستشهد بما مضى.

وتبدو هذه الوظائف جميعها متجلية في قصص سورة القمر يضاف إليها سمات أخرى تبدو واضحة بتكرار القراءة والإمعان، من ذلك مثلا التلوين في طرق السرد، والتغاير في العرض حسب ما تقتضيه المقاصد القرآنية في سورة عن سورة، فبينما تعرض قصة فرعون مع النبي موسى عليه السلام في آيات طويلة في سورة أخرى تعرض هنا في آيتين اثنتين من ابلغ ما يمكن من الإيجاز ولقد جاء آل فرعون النذر، كذبوا بآيتنا كلها فأخذناهم

---

١ ينظر: مدخل إلى نظرية القصة، سمير المرزوقي وجميل شاكر، ١٠٤-١٠٦.

اخذ عزيز مقتدر، حيث تمكنت المفردات المكتنزة بالطاقة التعبيرية العالية من القيام بوظيفة أيجاز القصر الذي أغنى عن كل إسهاب أو إطناب في هذا المقام، فمفردات مثل: النذر، كلها التوكيدية الحاملة لمعنى الشمول، أخذناهم، اخذ عزيز مقتدر والتأكيد باللام وقد التحقيقية التي تصدرت القول قبل الفعل الماضي، كل ذلك دليل على بلاغة يعجز الوصف عنها كما نرى التفاوت في عدد الآيات التي طرحت قصة النبي نوح عليه السلام في سبع آيات بينما أوجزت قصة آل فرعون في آيتين اثنتين فقط.

إن أهمية القصص القرآني ترجع إلى علل مختلفة في مقدمتها العلة الوجودية ذلك أن بدء الخلق كان قصة شخصيتها المحورية نبي الله آدم عليه السلام، ثم العلة الدينية، وتتمثل في كون الكتب السماوية بما فيها القران العظيم كانت تستند في وعظها وإرشادها على (فن القص) فضلا عن العلة الفنية التي تكمن في كون الأسلوب القصصي مما تألفه النفس الإنسانية، لما فيه من متعة السرد وجمال الإيقاع، ولأنه لا يقوم على التجريد التقريري ولا ينهض على وتيرة واحدة.. [١] أما العلة التربوية فتتجلى في أن القصة القرآنية في جوهرها تعد أسلوبا تربويا ينهض على التحسس والإثارة والتشويق، وهي مظاهر محمولة على المنظومة التبليغية في كل منزع تربوي تعليمي، فضلا عن كونها تتحلى بمواصفات المرونة والقابلية والاستدعاء، فهي تعرض عبر السياقات القرآنية مفصلة أو مختزلة، مطردة أو مبرقة، مفتوحة أو مغلقة [٢].

وتقوم الشخصية في القصة القرآنية كما هو دورها دوما بوظيفة فعل الحدث ولذلك اكتسب دورها أهمية بلورة الأفعال، ولقد تمثلت الشخصية في سورة القمر من خلال نمطين اثنين: الأول فردي ويتمركز حول شخصيات الرسل والأنبياء سواء ذكروا في الآيات بأسمائهم، أم وجدوا بحضور رسالتهم،

---

[١] ينظر: مستويات السرد ألإعجازي في القرآن الكريم، ١١.

[٢] ينظر: المصدر نفسه، ١١

وكذلك الأعلام الواردة في السياق القرآني، والنمط الثاني هو الجماعي، ويتمظهر في سورة القمر بأقوام الكفر التي حكت السورة قصصهم وهم: قريش، قوم نوح، قوم عاد، ثمود، قوم لوط، فرعون، ولقد وجد النمطان متقابلين في السورة إذ تبدو الأولى في حركية دعوتها السماوية مثابرة من اجل تحقيق غايتها، باذخة بصبرها وثباتها على منظومة مبادئها، ساعية إلى هدف مرسوم، وتبدو الثانية مستمرة في صدودها، متواصلة في مقاومة الدعوة، مستمرة في كفرها وعصيانها، وساعية إلى هدفها بإصرار، وهكذا نجد الشخصيتين في ثنائية ضدية يعمل أحدهما على نفي هدف الآخر، حتى تنتهي قصص الجميع بحلول العذاب بالكفار ما عدا قريش التي ظلت نهاية قصتها مفتوحة.

إن الشخصيات الموظفة هنا ليست بالشخصيات الوصفية التقريرية المباشرة بل هي شخصيات تتمظهر من خلال الوقائع المهمة ومنظومة السلوكيات والأحداث التي يرويها السرد مرة ويكشف عنها الحوار المنبثق من خلال السرد أخرى، حيث ينهض الحوار عنصرا فاعلا في الخطاب السردي، فهو يفصح عن شخصية المحاور، وعن مدى تغلغل الإيمان أو الكفر والعناد فيها، كما يعلن عن محاولة هدم الدعوة بإصرار من قبل المكذبين.

إن شخصية الأقوام المكذبة التي يطلق عليها في السردية: الشخصية المضادة تظهر من خلال الأخبار عنها منذ الآية الثانية: وان يروا آية يعرضوا ويقولوا... إلى آخر الآيات.. ثم تتصاعد الأفعال والوقائع تصاعدا عارما يكشف عن مدى عصيان هذه الشخصية من خلال تواتر الأفعال: يعرضوا، يقولوا سحر مستمر، كذبوا، اتبعوا أهواءهم، حيث يظهر هؤلاء الكفرة معرضين مكذبين منساقين وراء أهوائهم، ثم تتوالى الملفوظات التي تكشف عن غيهم بأسلوب عاصف الغضب: ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر، لكن السياق إذ يؤكد عنادهم وعصيانهم فانه يضع لهم عقابا

مضادا يوم القيامة هو الذل والخنوع: مهطعين إلى الداع قائلين بلوعة الندم: هذا يوم عسر..

كذلك تتبدى شخصية قوم نوح مكذبة مدعية متطاولة على الرسول الكريم في آية واحدة يتكثف التشكيل اللغوي فيها حتى يوحي بقصة القوم كلها، وينعطف السرد من المستوى الموضوعي في الوحدة الأولى مع قريش إلى الذاتي مع قوم نوح حيث يتصاعد الغضب الإلهي على شدة ما طغوا وعذبوا نبيهم بحيث كرمه الله تعالى على جهاده واصطباره بإضافته إليه في مفردة، (عبدنا) ومع احتدام الغضب السماوي على الكفر والكفرة ينعطف الأسلوب من السرد عن غائب مع قريش إلى السرد بضمير المتكلم بما في ضمير المتكلم من فاعلية واقتدار: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر. ولا يفصح السياق عما جرى للقوم إذ يبقى حالهم مسكوتاً عنه إشارة إلى فظاعة المصير الذي آلوا إليه، وشمولية العذاب الذي وقع بهم، وعودة بالحدث إلى سور أخرى فصلت فيها وقائع العصيان والسخرية، كما فصلت فيها وقائع العذاب والتدمير واجتثاث الكفر. وتظهر شخصية قوم عاد من خلال وصفها بالتكذيب أولاً، ومن خلال صور الانتقام التي حلت بها.

أما في قصة ثمود فان الشخصية الجماعية تكشف عن ذاتها من خلال فاعلية الحوار في آيتين اثنتين: فقالوا: ابشراً منا واحدا نتبعه إنا أذن لفي ضلال وسعر، أألقي الذكر عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشر، وهو تعالى يفصل تكذيب ثمود بعد أن أجمل تكذيب عاد لقصد بيان المشابهة بين تكذيب قريش وتكذيب ثمود لتشابه أقوالهم.. [1] والتفصيل يكشف عن ذاته من خلال: ١- السرد بالسياق الماضي. ٢- الحوار. ٣-التهديد والوعيد. ٤- الانعطاف نحو السرد بضمير المتكلم وهو يطرح أمر الفتنة في محنة

[1] ينظر: التحرير والتنوير، ١٩٦/٢٧.

الناقة التي أرسلها لامتحانهم بقسمة الماء بينها وبينهم ثم عقرها. ٥-حلول عذابهم بالصيحة فإذا بهم عصيانا وجبروتا وعنادا كهشيم المحتضر..

إن التكثيف الذي يخفي سمة التوتر الجمالي هو واحد من أهم سمات شعرية النص الذي يمارس ضغطا واختزالا على التشكيل الجملي، وحذفاً يترك آثاره بشكل ومضات كامنة تطل من خلال العملية التواصلية التي يخلقها لقاء النص بالقارئ.

وتواصل الشخصية الجماعية حضورها من خلال ضمير الجماعة غائبا مرة، ومخاطبا حاضرا أخرى، ومتكلما مرة ثالثة. وإذا كان الاسترجاع هو المرتكز السردي وأداته ضمير الغائب، فان العودة إلى ضمير الخطاب كل مرة: فذوقوا عذابي ونذر، هي عودة إلى محاولة دمج الماضي بالحاضر، ماضي الكفار السابقين بحاضر الكفرة اللاحقين، حيث يعمد النص إلى تذكير قريش بأنها ستكون جزءاً من أولئك المعذبين إن لم تستجب للأيمان.

كذلك تظهر شخصية قوم لوط شخصية مكذبة ماجنة، عاصية، ولذلك كان وصف إنذارهم شديدا حيث تعرب مفردة (بطشتنا) عن فداحة الغضب عليهم، وسوء المصير الذي حل بهم. أما شخصية آل فرعون، فإنها تتشكل بإيجاز قرآني مدهش، حيث تعرض من خلال ثلاث جمل في آيتين اثنتين إمعانا بتحقير عصيانهم، وتغييبا لهم في هذا السياق من خلال إظهار العلامات الدالة على سيرتهم: *الإنذار *التكذيب *العذاب.

(٦)

اختلف الباحثون قديماً وحديثاً في تحديد مصطلح التشاكل الصوتي في نهاية الآيات فمنهم من أقرَه سجعاً، ومنهم من رفض السجع وأقرَه فواصل، واختلفوا كذلك في تحديد مصطلح الفاصلة فمنهم من قال هي

حروف متشاكلة في المقاطع ومنهم الرماني، ومنهم من قال: هي كلمة آخر الآية ومن هؤلاء الزركشي [١].

والفاصلة كلمة آخر الآي كقافية الشعر وسجعة النثر، والتفصيل توافق أواخر الآي في حروف الروي أو في الوزن مما يقتضيه المعنى أو تستريح إليه النفوس [٢] لعل الباحثين

في اختلافهم حول تحديد المصطلح يتفقون على الأمور الآتية:

١-موقع الفاصلة هو آخر الآي.

٢-التشاكل في الحروف والمقاطع.

٣-دورها في جلاء المعنى.

٤-دورها في تحقيق استراحة الكلام.

٥-توضيحها من خلال المقارنة بالقافية أو السجع أو الاثنين معاً [٣].

يضاف إلى ذلك دورها الإيقاعي في تحديد ضربات جمالية من خلال الأصوات التي تلتزمها ودورها الدلالي في تقسيم الكلام والفصل بين آية وآية.

ولم يوفق من قارن الفاصلة بالقافية لأن الأولى أكثر تحرراً في التشكيل ذلك أن مبنى الفواصل على الوقف، ولذلك شاع مقابلة المرفوع بالمجرور، وبالعكس وكذا المفتوح أو المنصوب غير المنوَن برأي الزركشي [٤] فضلا عن أن ما قبل الفاصلة لم يحدد بتشكيل معين كما هو الحال في القوافي على رأي الخليل الذي وضع لها حدوداً ما بين آخر ساكنين في العجز مع المتحرك الذي يسبق الساكن الأول.. وبذلك يتحرر النص القرآني

---

١ ينظر: البرهان، ١ / ٥٣.

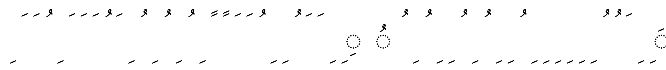
٢ ينظر: الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، ٢٩.

٣ ينظر: المصدر نفسه.

٤ ينظر: البرهان، ١ / ٦٩.

مما قيد به الشعر إلا ما جاء منه متفقاً مع بعض الأوزان في بعض الآيات تلقائياً.

بنيت فواصل سورة القمر على وقف الراء متواترة من بداية السورة حتى نهايتها، وتنوعت حركات الحرف السابق لها ما بين كسرة وضمة وفتحة على الوجه الآتي:



إذ نجد في أصوات ما قبل الفواصل (٢٥) كسرة و (٢٠) ضمة و (١٠) فتحات، مما يشير إلى أن (٤٥) صوتاً من هذه الأصوات يتسم بالشدة والقوة التي هي من صفات الضمة والكسرة مما يتلاءم وأجواء التهديد والوعيد التي زخرت بها دلالات النص، بينما كانت الفتحات العشر التي تشكل في نسبتها اقل من الربع تشير إلى الإنفراجات النصية القليلة التي وردت في السياق، ويؤكد بعضهم أن اللسان العربي ميال بالسليقة إلى تفضيل الفتحة على الضمة والكسرة كونها أخف الحركات تليها الكسرة في نسبة التردد، أما الضمة فهي أقل الحركات تردداً على اللسان العربي لأنها أصعب الحركات ثقلاً في النطق [١] وهذا التأكيد على حقيقة خفة الفتحة قد يفسر ارتفاع نسبة حضور الكسرة والضمة في السورة أمام انحسار الفتحة عبر فواصل الآيات، مما يفصح عن شدة الدلالات الطافحة بالتهديد والغضب التي أنتجها النسيج الصوتي للفواصل في النص..

يشير علم الأصوات العربية إلى أن صوت الراء التي هيمنت على فضاء السورة الصوتي، هو من الأصوات المكررة، لأنه يتكون من تكرار ضربات اللسان على اللثة تكراراً سريعاً، ولذلك سمي بالصوت المكرور، وهو صوت لثوي مجهور يشبه الحركات في أهم خاصة، من خواصها، وهي قوة الوضوح السمعي، التي يتصف بها الراء أكثر من بقية الأصوات الصامتة،

---

[١] ينظر: المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، د. ممدوح عبد الرحمن، ٥٥.

فضلاً عن كونه صوتاً مجهوراً حركياً مضطرباً ترداديا [1] وهذه الصفات التي يزخر بها التشكيل الصوتي للسورة يقابلها في الداخل حركة اضطراب العذاب، في القصص الخمس التي سيقت، يضاف إليها الوعيد الموجه لقريش وما فيه من صور العذاب، حتى أن الدلالة لتتجاوب طردياً مع الإيقاع، والإيقاع مع الدلالة في علاقة جدلية مدهشة عبر الوحدات الثمان..

١-ففي الوحدة الأولى يتجلى حراكٌ شديد بين انشقاق القمر والدعوة والإعراض عنها والتكذيب والازدجار والنذر والخروج من الأجداث والخوف الناتج عن عسر يوم القيامة وشدته.

٢-كل ذلك يتجاوب مع حركة قوم نوح في عصيانهم النبي وزجرهم إياه وفتح أبواب السماء بماء هاطل وتفجير الأرض عيوناً، فحركة الماء واضطراب جريانه المستمر وتدفقه ما بين السماء والأرض تتجاوب مع حركة الإيقاع المتواصل لفواصل الراء عبر السورة، كما يتجاوب مع ترددها وترجيع صداها..

٣-ويواصل الصدى تجاذبه ما بين حركة الماء الطاغي في عذاب قوم نوح مع إيقاع حركة الريح الصرصر "وهي الريح الشديدة القوية يكون لها صوت صاعق" [2]، وهي لشدتها تنزع الناس حتى تحيلهم كأعجاز النخل المقطوعة من أصولها، وقد ذُكّرت صفة النخل (منقعر) مجاراةً لوحدة الفاصلة وقد روعي في الإفراد والتذكير صورة لفظ (نخل) دون عدد مدلوله خلافاً لما في قوله تعالى: ((كأنهم أعجاز نخل خاوية)) [3]

٤-وتواصل حركة التكذيب مع العذاب إيقاعها متجاوبة مع إيقاع الراء في الفواصل من خلال قصة ثمود وإنكار القوم وجدلهم، وتهديد القرآن لهم على

---

[1] ينظر: علم اللغة العام، الأصوات، د. كمال محمد بشر، ١٢٩-١٣١.

[2] ينظر: التحرير والتنوير، ٢٧/ ١٩٢.

[3] سورة الحاقة، من الآية ٧.

عصيانهم وعقرهم الناقة، ونزول العذاب بهم صيحة واحدة حاسمة هذه الصيحة تتجاوب مع صرصر عاد، مع غرق قوم نوح، وكأن إيقاع الراء في فواصل وحدات السورة يحاكي وقع المطر الذي لم يرد في القرآن الكريم إلا تعبيراً عن العقاب وأمراً بالعذاب، حتى كأن السورة تمطر على الكفار المكذبين عذاباً، والراء صوت في جذر المطر، والمطر لا يجيء إلا من الأعلى، من السماء.

٥–وهكذا يواصل العذاب عبوره، فنجده يجتاح قوم لوط متجاوباً مع حركات التعذيب السابقة بالحاصب الذي صبحهم بكرة عذاباً مستفزاً هابطاً عليهم من السماء مطراً بإيقاع فاصلة الراء كذلك.

٦–وتتمركز الحركة السادسة في إيقاع عذاب آل فرعون بعد تكذيبهم على التكثيف الدلالي (فأخذناهم) في جمع الفعل والفاعل والمفعول في تركيب واحد يفصح عن البغتة في وقوع فعل العذاب من خلال هيمنة الفاعل المقتدر على المفعول به (المعاقب) وسقوط الأخير الكامل في قبضته، حيث تجلو فاصلة الراء هنا معنى الإحاطة الشاملة كما تجلو دلالة الهيمنة والاقتدار.

٧–تنعطف الوحدة السابعة إلى أسلوب الخطاب، والمخاطب هنا كفار قريش حيث يواصل الخطاب القرآني تأنيبهم، مؤكداً هزيمتهم في حركة تصويرية بالغة الروعة لأنها تعلن الوعيد وتضمر البشارة وتمزج الحاضر بالمستقبل وتخفي القرار بالحكاية فقرار السماء أن يهزم الكفر ويرتفع نور الله ليشمل الكون وما عليه، ويواصل الوعيد تصويره القرآني في دقة تنتج دلالات تعزز إيقاع السورة في سيره النهائي نحو استكمال صورة مآلهم المخزي. "يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر" حيث تتراسل الحواس، وتتداخل وظائفها ما بين اللمس والذوق، ولا تستقر حركة العذاب في السورة إلا عند القانون الإلهي الأعظم: وكل شيء فعلوه في الزبر، وكل صغير

وكبير مستطر، أي مسطور في كتاب، والمستطر كناية عن علم الله به، وجزائه عليه جامعاً للتبشير والإنذار [1]

٨–تتعطف الدلالة في الوحدة الثامنة انعطافة حادة مباينة لوحدات السورة السبع السابقات، لتقفل إيقاع حركة العذاب القاصمة بقفل الرحمة من خلال آيتين تضمان الكثير من السلوان والأمل لمن أرعبته صور الهلاك التي توالت على الأمم المكذبة، لكن هذه الرحمة عرضت في إطار الرهبة والجلال، جلال الجمال وجلال الهيبة: في جنات ونهر، عند مليك مقتدر دون نعوت ولا أوصاف ولا أفعال يحرك حدثها التركيب، بل عرضت بجمل اسمية فيها ثبوت الوعد وحسم القرار، فالأوصاف والنعوت إن لم تضف إلى المنعوت ما يثري دلالته أو يكسر التوقع الحاصل فيه فأنها تعمل على إضعاف تأثيره لان فعلها سينصب على شرحه أفقيا والدلالة لا تثرى إلا بتعميق فعلها واكتناز طاقتها الداخلية بالفعل والرمز ووحي الإشارة.

إن التنكير في هاتين الآيتين يفيد التعظيم والتفخيم، ومليك مقتدر فيها مبالغة عن ملك قادر، فالله تعالى الذي بطش بأقوام الكفر هو صاحب الأمر ومالكه، القادر على تنفيذه، وهو نفسه صاحب الجزاء لمن اتقى واطاع، كل ذلك يلفه حرف الراء متكررا بتكرار الوعيد، ومستمراً مع جريان الحدث وتدفق الوقائع، وهو إذ يأتي ساكنا فإنما يقفل الآية صوتيا على الدلالة داخلها دون فتح الفاصلة بحركة تشبع فتفتح النهاية على الإفصاح الذي يعمل على الإفضاء النهائي بالتعبير عن تلون المشاعر حزنا أو تهديدا وغضبا أو أملا وانفراجاً.

إن أهمية وحدة الفاصلة هنا تكمن في التعبير عن انسجام الدلالة و الإيقاع، فضلا عن تجاوب الدلالة مع الراء في أماكن متباينة داخل السورة، يتجلى ذلك من خلال نظرية الموقع التي تؤكد أهمية المواقع في إبراز

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير، ٢٧/٢٢٤.

التعادلات الصوتية، فالموقع يكون أحد مؤشرات التوازن الخفي، ولذلك يبقى هناك حيز لظهور تعادلات حرة غير موقعية قائمة بنفسها، أو هي ذات موقع داخل نسقها الخاص.. [١] قد انتشر صوت الراء على خمس وأربعين موقعا داخل السورة ماعدا راء الفواصل التي تصعد بالرقم إلى مئة موقع مما يشكل مثيرا لافتا للانتباه عن أهمية صوت الراء في هذه السورة تشكيلا ودلالة وإيقاعا.

هذا من جهة ومن جهة أخرى، فان الانزياح الذي يكسر مستويات الانسجام والاطراد في النص سيكون سمة من سمات أدبية النص القرآني الذي تناوبت آياته هنا ما بين تماثل وتقارب وتباين في التركيب نحوا وطولا وقصرا، وان سادت فيه الجمل القصيرة المتسمة بالحركية والزاخرة بحيوية تبث نشاطها عبر الإيقاع السريع وهي ماضية نحو نهايتها الطافحة بيقين الصدق وعيدا ووعدا، والمختومة بالطمأنينة العميقة لمن اتقى..

إن الكثافة الصوتية التي تلعب دورها المهم في تحريك الإيقاع وتشكيل توازناته تتمظهر هنا من خلال وحدة الفاصلة مرة، وحضور الحرف الذي بنيت عليه الفاصلة (الراء) في مجمل آيات السورة حضورا فاعلا، فضلا عن حضور اللازمة التي تجاوب تكرارها عبر القصص تجاوبا مدهشا:

١-فكيف كان عذابي ونذر، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر التي تكررت مرتين في قصتي نوح وعاد.

٢-ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر التي تكررت مرتين في قصتي ثمود ولوط.

٣-فكيف كان عذابي ونذر، التي تكررت مرتين في قصتي عاد وثمود.

٤-فذوقوا عذابي ونذر مرتين مع قصة قوم لوط.

٥-فهل من مدكر تكررت مرتين مع قوم نوح وقريش

---

[١] تحليل الخطاب الشعري البنية الصوتية في الشعر، د. محمد العمري، ١٤٥-١٤٦.

فضلا عن تكرار " كذاب أشر... " مرتين.

من هنا نجد أن تكرار " ولقد سيرنا القران للذكر فهل من مدكر " وكذلك " فكيف كان عذابي ونذر" يشكل لازمة تكررت أربع مرات عبر القصص الأربع المتتالية، وكانت تقوم بمهمة الربط النسيجي في النص من خلال ربط القصة بالتي تليها، فضلا عن مهمتها الإنشادية التي دعت أحد الباحثين إلى إطلاق مصطلح (السرد الإنشادي) على سرد سورة القمر معللا ذلك تعليلا فنيا، فالقصة في رأيه تنهض على السرد، والسرد يحتاج إلى النفس الطويل، ولما كان جنس القصة يخضع للتنويع في الأحداث والشخصيات فقد استلزم ذلك وجود اللازمة التي سيقت لأجل المحافظة على المدد السردي ولتضفي عليه جمالية نغمية، الأمر الذي جعل متعة متابعة القصة متجددة [1] لكن قراءتنا فضلا عن وعيها بهذه الحقيقة إلا إنها تؤكد المهمة الدلالية للإيقاع، فكل شيء في التشكيل اللغوي يهدف إلى تأسيس معنى، مما يعزز دور اللازمة في تحقيق الدلالات المرتبطة بكل قصة على حدة من جهة، ومن جهة ثانية فإنها تعزز الدافعية النهائية من سرد القصص جميعها بحيث تفضي إلى الآتي:

١-التعجب من عصيان الكفار ومن شدة العذاب الذي لحق بهم عبر العصور، مما يدعو قريش إلى الكف عن العصيان والاستكبار، وإلى الإيمان برسالة النبي الكريم محمد (ص).

٢-تيسير القرآن على قارئيه من خلال يسر تراكيبه ودلالاتها عليهم، ومعنى تيسيره يرجع إلى تبسيط ما يراد من الكلام وهو فهم السامع للمعاني التي عناها المتكلم بدون كلفة، وهذا اليسر يحصل من جانبي اللفظ والمعنى، فألفاظه في أعلى فصاحة الكلمات والتراكيب، والمعاني تتأتى من وضوح، انتزاعها من التراكيب، ووفرة ما تحتوي عليه تلك التراكيب من مغازي الغرض

---

[1] ينظر: مستويات، السرد ألإعجازي في القرآن الكريم، ١٤٨.

المسوقة هي له، ومن تولد معان من معان أخر كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها ووسائل ذلك كثيرة أهمها: ١-إيجاز اللفظ ليسرع تعلقه بالحفظ. ٢-إجمال المدلولات ليذهب المتلقي في انتزاع المعاني منها كل مذهب يسمح به اللفظ والغرض والمقام. ٣-ومنها الإطناب بالبيان إذا كان في المعاني بعض الدقة والخفاء [١] إن جملة (ولقد يسرنا القرآن للذكر..) تعد دلالة بشارة وسط أجواء التهديد والوعيد، ووسط العذاب الذي حل بالأمم المكذبة التي سلف ذكرها.

٣-فهل من مدكر.. في هذا الاستفهام المجازي حث على الادكار ودعوة إلى التدبر وتأمل ما في هذا القرآن من عظمة وعظات.

إن هذه اللازمة فضلا عن وظيفتها الإيقاعية التي تكشف فنية النص فأنها توظف إمكانيات الأصوات، وقدرتها على الإيحاء بالمعنى ومحاكاته، فالملاحظ أن المعنى يعظم شأنه دائما، ويرقى إذا ما صاحبته المؤثرات الصوتية التوقيعية الخالصة بما ينتظم فيها من جمل قصار ومقاطع قصيرة [٢]، لما تتسم به من خفة، ذلك إن تجمعات مقاطعها اختصرت على الأسباب الخفيفة والفواصل الصغرى فقط (ب ب –) (///٥) وغياب الفواصل الكبرى في اللازمة يعني غياب الكتل الصوتية الثقيلة، وهذه الخفة تشيع جوا موسيقيا خاصا، وصورة صوتية قادرة على تأكيد الدلالة المرادة من خلال توزيع مرتكزاتها التشكيلية بكل ما في مستويات ذلك التشكيل من قدرة على التأثير. إن مهارة التشكيل الصوتي تكمن في قدرته على بث الظلال والألوان العاطفية والجمالية للمعاني التي يحملها [٣] فضلا عن التلوين الدلالي والانعطاف من معنى إلى آخر ومن زمن ومكان إلى زمن ومكان غيره، ومن

---

١ ينظر: التحرير والتنوير، ١٨٨/٢٧

٢ ينظر: دور الكلمة في اللغة – ستيفن اولمان، ترجمة د. كمال محمد بشر، ٨٧.

٣ ينظر: المصدر نفسه، ١٠٦.

قوم إلى قوم، مع التلوين بإيقاع الأفعال التي حركت الأحداث والتي كان عددها اثنين وسبعين فعلا غلب عليها الفعل الماضي مما يشير إلى أن الاسترجاع هو الذي كان محور القص، بينما حضر المضارع خمس عشرة مرة وفعل الأمر سبع مرات، مما يؤكد أن العظة في السورة لم ترتكز على الأوامر قدر ارتكازها على التذكير وضرورة الاعتبار من خلال ضرب الأمثلة والحوار ومخاطبة العقل الإنساني من اجل تحريك طاقته الإيجابية ووعيه الخلاق، ولذلك أكدت اللازمة المكررة في هذه السورة عبر جملها القصيرة على التعجب وتهويل عذاب الكفار بسبب تكذيبهم الرسل دون تأن وتأمل وتدبر، كما أكدت بشدة على سهولة ويسر القرآن الكريم على الفهم والتلقي، والحث على الهداية والإيمان على أن الجامع بين الدلالات الثلاث هو ضرورة الاستجابة لرسل الله والإيمان برسالتهم المتمثلة اليوم بخاتم الرسل ومعجزته الكبرى القرآن وهي معجزة يسر الله سبحانه مدلولاتها على الفهم لمن تذكر ووعى.

ومما يلفت النظر في سورة القمر ظاهرة صوتية تقع في حقل المماثلة، فالأصوات اللغوية يتأثر بعضها ببعض ولا سيما في حالة النطق الطبيعي الذي لا تكلف فيه، على أن نسبة التأثر تختلف من صوت لآخر، فمن الأصوات ما هو سريع التأثر يندمج في غيره أكثر مما قد يطرأ على سواه، ومجاورة الأصوات بعضها لبعض في الكلام المتصل هي السر فيما قد يصيب بعض الأصوات من تأثر، وتهدف الأصوات في تأثرها هذا إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها ليزداد مع مجاورتها قربها في الصفات أو المخارج فيما يسمى بالانسجام الصوتي في اللغة، وقد قسموا التأثر على نوعين: رجعي وفيه يتأثر الصوت الأول بالثاني، وتقدمي وفيه يتأثر الصوت

الثاني بالأول ونشير هنا إلى الإبدال [١] القياسي في صيغة افتعل حين تكون فاؤها دالاً وزاياً وصاداً إذ وردت في الآيات الآتية:

١-ولقد جاءهم من الآيات ما فيه مزدجر... آية ,٤

٢-وقالوا مجنون وازدجر ...آية ,٩

٣-تكرار لازمة فهل من مدكر في الآيات ١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ,٥٠

٤-فارتقبهم واصطبر... الآية ٢٧.

فالأصوات في الأصل هي مزتجر، وازتجر، مذتكر، واصتبر.

إذ اجتمع في كل هذه الصيغ صوتان متجاوران: الأول مجهور والثاني مهموس فتأثر الثاني بالأول وانقلب إلى صوت مجهور أيضا ليجتمع صوتان مجهوران، علما أن التاء المهموسة حين يجهر بها تصير دالاً، وهذه الصيغ أصبحت في الآيتين: ٤، ٩ مزدجر، وازدجر. وأصبحت مذتكر/ مذدكر حينما فني الصوت الأول في الصوت الثاني ونطق بهما صوتاً واحداً، وبذلك صار التأثر رجعياً[٢].

إن فناء الصوت في الصوت المجاور هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الصوت في تأثره بما يجاوره.

أما صيغة اصطبر فهي في الأصل اصتبر، وقد اجتمع فيها صوتان مهموسان، احدهما مطبق والآخر مستقل، فقلبت التاء إلى نظيرها المطبق وهو الطاء الحديثة كما ننطقها الآن [٣] فصار النطق أكثر جلاء ورونقا ووضوحا.

إن اندغام صوتين مجهورين معا يبلغان رسالة التحضيض على فعل التذكر والأمر به بأسلوب أشد وقعا وابلغ مما يؤديه حرفان مهموس

---

[١] الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، ١٤٥- ١٤٧.

[٢] المصدر نفسه ١٤٧ – ١٤٨.

[٣] المصدر نفسه ١٤٧ – ١٤٨.

ومجهور ولا سيما أن قراءة هذه الآية مروية بِخصوصها عن النبي الكريم (ص) وقد ورد في سورة يوسف ((وادكر بعد امة)) من الآية " ٤٥ "، والتحضيض موجه إلى جميع من تبلغه هذه الآيات و " من " زائدة للدلالة على عموم الجنس في الإثبات [١].

إن هذا التطور الواضح في نطق الأصوات سواء على مستوى القلب أو التماثل أو الفناء داخل الصيغ اللغوية لهو دليل على سعي النص القرآني نحو تقديم رسالته في أروع التشكيلات صفاء في اللفظ وانسجاما في الأداء، إن صيغة مذتكر مع أنها مطابقة في الميزان الصرفي لمفردة مدكر إلا أنها لا يمكن أن تدانيها خفة ولا كثافة ولا جلالاً في النطق، ولا عجب فهذا القرآن لم ينزل كتابا مسطورا ليوضع بين الكتب بل أوحي ليقرأ على الناس على مكث وليرتل تعبدا ويتلى في الصلوات. إن تكرار الصوت تأكيد لفعل الدلالة وفي برهان القرآن كرر في قصة عاد جملة فكيف كان عذابي ونذر مرتين لان الأول في الدنيا والثاني في العقبى، وقيل الأول لتحذيرهم قبل هلاكهم، والثاني لتحذير غيرهم بعد هلاكهم " " [٢] والنذر جمع نذير بمعنى الإنذار أسم مصدر قال تعالى ((هذا نذير من النذر الأولى ... النجم آية " ٥٦ " والنذر جمع بمعنى الإنذارات وحذف الياء فيها في الوقف فصيح، وكثر في القرآن عند الفواصل لتكثيف المعنى وشدة الإيحاء به تغييبا لإنفراجات المدود التي تفسح مجالاً لبسط الدلالة أفقيا والتنفيس عنها في حين عمد حذف الياء إلى تحول الوعيد والغضب إلى طاقة تشتغل في الداخل فضلاً عن أدائها الخارجي. إن كل حذف هو إيجاز وتكثيف، وكل تكثيف فيه تحول من الخارج إلى الداخل، من التشكيل اللغوي إلى البنية العميقة حيث تشتد طاقة المعنى وتزداد قوة في الإبلاغ.

---

١ ينظر: التحرير والتنوير ١٨٧/٢٧.

٢ ينظر: تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، الشيخ إسماعيل حقي البروسوي،١٩٣/٤.

إن صيغ الفواصل تقرر اعتماد إحدى وثلاثين فاصلة من خمس خمسين آية في السورة على صيغة ثلاثية بوزن "فعل" بضمنها أربع عشرة صيغة على " فُعُل" ذات الكتل الصوتية الثقيلة التي تغلب عليها الضمة بثقلها وتمكنها الأدائي في التبليغ، كما تحتوي هذه الفواصل على إحدى عشرة مفردة تتضمن دلالة الإنذار مقترنة بالعذاب الشديد هي "نذر" المشار إليها، وتوزيع هذه الصيغة على فواصل الآي في السورة توزيعاً يغطي ما يقرب من ثلثيها دليل على الانسجام التام ما بين الصوتي والدلالي، حيث تتوزع سَوْرة الغضب والتهديد والوعيد على جميع أجزاء النص، وتحريك مفاصله بشدة لا تهدا إلا في ختام الآيات: فكيف كان عذابي ونذر، استفهام فيه الكثير من التحذير المصحوب بالتعجب، من عودة الناس إلى الكفر بعد ما حل بالكافرين من ألوان العذاب، هذا التحذير النابض بالأمر أن احذروا عذابي وإنذاراتي التي تدعوكم إلى الاعتبار مما وقع للأمم المكذبة قبلكم.

دعوة إلى التذكير والعظة، تحضيض، تحذير، وإنذارات متلاحقة، والراء تهطل في السورة هطول الإنذارات المتلاحقة، والراء المكررة الكثيفة تتساقط سقوط عذاب المطر على المكذبين وعنادهم، وانتشار الراء في أجزاء السورة لا يعطي برهة لالتقاط الأنفاس والتريث، إنها تمطر، تمطر لكن رحمة الله الكريم تأبى إلا أن تجد لها حضوراً يغمر قلوب البشر بالأمل وبأن رحمة الله قريب من المؤمنين.

المصادر والمراجع

١. الإتقان في علوم القران، جلال الدين السيوطي، (٩١١هـ)جـ١، دار مكتبة الهلال، بيروت، د. ت.

٢. الأدب وفنون، دراسة نقدية، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٦، ١٩٧٦.

٣. الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، د. احمد كمال زكي، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩.

٤. الأصنام، ابن الكلبي.

٥. الأصوات اللغوية، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩.

٦. الإنسان والقمر، محمد يوسف حسن، تقديم عبد الحليم منتصر، دار الثقافة الإنسانية للنشر، القاهرة، ١٩٥٩.

٧. البرهان في علوم القران، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ١، عيسى البابي الحلبي وشركاه،، ط٢، ١٩٧٢.

٨. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية والدار الجماهيرية، د.ت.

٩. تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر، د.محمد العمري، الدار العالمية للكتاب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٠.

١٠-تحليل الخطاب الشعري، ستراتيجية التناص، د.محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

١١-تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، (٧٧٤)جـ٤، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.

١٢-تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، إسماعيل حقي البروسوي، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، الدار الوطنية، بغداد، ط١، ١٩٩٠,

١٣-دور الكلمة في اللغة، سيتفن اولمان، ترجمه وقدم له وعلق عليه د.كمال محمد بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، ,١٩٨٦

١٤-صحيح مسلم، الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٦١ هـ) تحقيق وتصحيح وترقيم وإعداد وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

١٥-العلم في منظوره الجديد، روبرت م. أغروس وجورج ن. ستانسيو، ترجمة كمال خلايلي، عالم المعرفة، (١٣٤)، الكويت، ,١٩٨٩

١٦-علم اللغة العام، الأصوات، د.كمال محمد بشر، دار المعارف بمصر، ,١٩٧٥

١٧-الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار عمار، عمان، ط٢، ,٢٠٠٠

١٨-في ظلال القرآن، سيد قطب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٥، ,١٩٦٧

١٩-قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، ,١٩٦٦

٢٠-المؤثرات الإيقاعية في لغة الشعر، د. ممدوح عبد الرحمن، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ١٩٩٤.

٢١-محاضرات في علوم القرآن، د. غانم قدوري، دار الكتاب للطباعة، بغداد، ط١، ,١٩٨١

٢٢-مدخل إلى نظرية القصة، سمير المرزوقي وجميل شاكر، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ,١٩٨٦

٢٣-المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

٢٤-مستويات السرد الاعجازي في القرآن الكريم، شارف مزاري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ,٢٠٠١

٢٥–معاني النحو، جـ١، د. فاضل صالح السامرائي، مطبعة التعليم العالي، الموصل، ,١٩٨٩

٢٦–معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين احمد بن فارس بن زكريا، (٣٩٥هـ)، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ,١٩٧٢

٢٧–المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالاصفهاني، إشراف د. محمد احمد خلف الله، مكتبة الانجلو المصرية، مصر، ,١٩٧٠

٢٨–المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي، جـ٦، دار العلم للملايين، مكتبة النهضة بغداد، بيروت، ط١، ١٩٧٠.

Abstract

Surat Qamar (lit. the Moon)
Semantic Study

Dr. Bushra Al-Busitāni*

This is a semantic study of one the Quranic Surah (chapter). This surah is called Qamar (Lit. the Moon). This chapter consists of fifty five verses. It is the fifty four chapter among the Quranic surahs.

* Prof.- Dept. of Arabic- College of Arts / University of Mosul.